الزهراء

ج ٤ : م ١ — ١٥ ربيع الثاني ١٣٤٣

حياة ابن خلدون

ومُثل من فلسفته الاجتماعية

محاضرة القاها الاستاذ المحقق السيد محمد الخضر

في الحفلة التي أقامتها جمعية تعاون جاليات افريقية الشمالية

مساء الجمعة ٥ صفر سنة ١٣٤٣

— ١ —

تأسست هذه الجمعية لتنهض بجاليات افريقيه الشمالية حتى يسيروا مع اخوانهم المصريين جنباً لجنب : يسايرونهم في أفكارهم ، في آدابهم ، في معارفهم ، في كل شأن من شؤون حياتهم الاجتماعية الراقية . وكذلك يجب على كل جالية تعيش بين قوم ناهضين . وكذلك يجب على كل جالية تعيش في بيئة هي أوسع من أوطانها حرّيةً واحتمالا للمشروعات الاصلاحية

وللدعوة الى المنافسة في الخير ، والمسابقة في حلبة الشرف والسعادة ، طرق شتى ؛ ومن أقربها مأخذاً ، وأبلغها أثراً ، إلقاء محاضرات تتمثل فيها سيَر رجال أدركوا بصفاء ألمعيتهم وكبر همتهم مكانة راسخة ، وسمعة فائقة . وقد بدا لنا

أن نفتتح محاضراتنا بذكرى الفيلسوف الاجتماعي أبي زيد عبد الرحمن بن خلدون

نسب ابن خلدون

هو وليّ الدين عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر بن محمد بن ابراهيم بن عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي [1] . ويتصل هذا النسب الى وائل بن حجر الصحابي الذي وفد على النبي صلى الله عليه وسلم فبسط له رداءه وأجلسه عليه ودعا له

ذكر ابن خلدون نسبه على هذا النسق وقال : لا أذكر من نسبي الى خلدون غير هؤلاء العشرة

دخول سلفه الى الاندلس

كان خلدون المذكور قدم من المشرق في رهط من قومه أهل حضرموت ونزل إشبيلية ، وهي حمص التي يقول فيها صاحب مرثية الاندلس :

وأين حمصٌ وما تحويه من نُزَهٍ ونهرُها العذبُ فيّاضٌ وملآن

تفرّع آل خلدون في إشبيليه ، وكانت لهم فيها زعامة ورياسة . ثم رحل جده الحسن عقب فتنة خفقت ريحها في تلك البلاد فنزل سبتة ، ثم ارخى زمام مطيته متوجهاً الى مدينة (عنابة) لصلة كانت بين بعض أسلافه وبين صاحبها الامير زكرياء فلقيه الامير بالحفاء ، وأدخله في سلك رجال دولته ، وجرى ابنه محمدٌ على سَنَنه في خدمة الدولة وأدرك ما ناله والده من وجاهة واقبال . وانتهى أمر ابنه محمد ـ الذي هو الجد الادنى للفيلسوف ابن خلدون ـ الى السكنى بمدينة (تونس) والانتظام في هيأة الدولة ، وكان السلطان أبو يحيى إذا خرج من مدينة تونس يستعمله عليها ، ولكن ابنه محمداً ـ وهو والد الفيلسوف المتحدّث عن

(١) خلدون بفتح أوله كما نص عليه صاحب الحلل السندسية (مخطوط) ، وصاحب نيل الابتهاج (ص ١٦٩ هامش الديباج المذهب) . وأصل اسمه خالد وعرف بخلدون كما جاء في تاريخ المترجم به (٧ : ٣٨٠)

حياته ـ عدل عن مسلك السياسة وخدمة الدولة وآثر مدارسة العلم ومجالسة الادباء ، فأصبح معدوداً في زمرة العلماء ، ومشهوداً له بالتقدم في فن الادب

نشأته في تونس

في هذا البيت ـ الذي تقلب رجاله في أطوار خطرة ، ثم بسط فيه العلم أشعةً باهرة ـ ولد أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون في غرة رمضان سنة ٧٣٢ فكانت نشأة ابن خلدون في اسرة امتطت ذرى الرياسة ، وخفق فيها روح العلم والادب ، مما ساعد ذكاءه الفطري على أن يشتعل بشدة ، وجعل نفسه الزكية بمقربة من الهمم الكبيرة

نشأ ابن خلدون وكانت رياض العلم في مدينة تونس زاهية ، وسوق الادب نافقه . فاستظهر بالقرآن ، وتلقى فن الادب عن والده . ثم أقبل يجتني ثمار العلوم بشغف ، ويتردد على مجالسة العلماء الراسخين ـ مثل قاضي القضاة محمد بن عبد السلام ، والرئيس أبي محمد الحضرمي ، والعلامة الابلي ـ ولم يكد يستوفي سن العشرين حتى تجلت عبقريته ، واستدعاه أبو محمد بن تافراكين المستبد وقتئذ الى كتابة العلامة عن السلطان أبي اسحاق وهي « الحمد لله والشكر لله » تكتب بالقلم الغليظ ما بين البسملة وما بعدها من مخاطبة أو مرسوم ، وهذا مبدأ دخول ابن خلدون في حياته السياسية

عزمه على الارتحال

تولى هذا العمل وهو يطوي ضميره على الرحلة من افريقية : لوحشة أنارها في نفسه ذهاب معظم شيوخه ، وانطواء مجالسَ كانت أنهارُ علومها دافقة ، وتطوف آدابها دانية . ويمكنك من هاهنا أن تعرف لابن خلدون وهو في شرخ شبابه مبدأ من مباديء الفطرة السليمة ، والهمة الشامخة ، وهو الاستخفاف بالمقام

الوجيه لدى الدولة ، وإيثار ما فيه كمال نفسي ولذة روحية على مظاهر الأبهة ومواطن الراحة والنعيم

رحلته الى بجاية

لبث ابن خلدون بعد تقليده رسم العلامة أمداً غير بعيد حتى أمكنته الفرصة من أمنيته ، وغادر تونس سنة ٧٥٣ الى قفصة ثم الى بسكرة ونزل فيها ضيفا مكرماً لدى صاحبها يوسف بن مزني

ثم خرج منها قاصدا السلطان أبا عنان وهو يومئذ بتلمسان ، فلقيه على الطريق ابن ابي عمرو صاحب بجاية آيباً من تلمسان ، فصرفه عن قصد أبي عنان ، وحمله على المسير معه الى بجاية ليغتبط بصحبته ، وتزدهي بمثل ابن خلدون أيامُ دولته

ابن خلدون عند سلطان فاس

لم يكد ابن خلدون يقضي في كنف صاحب بجاية برهة حتى طار صيته ، وعبق ذكره في حضرة السلطان أبي عنان ، وقد جعل هذا السلطان بعد عوده الى فاس يؤلف من جلة العلماء مجلساً حافلاً ، فاستدعاه من بجاية سنة ٧٥٥ فأكمل به نظام مجلسه العلمي ، واختاره للكتابة والتوقيع بين يديه . قال ابن خلدون « فتحملت هذا العمل على كره مني ، اذ كنت لم أعهد مثله لسلفي »

اتهامه بالمؤامرة على السلطان

حظي ابن خلدون لدى أبي عنان وارتقى في دولته مكاناً علياً ، فأخذ حرّ الحسد يلفح قلوب بعض منافسيه ، فأخذوا يبيّتون له المكايد ، وينصبون له شرك السعاية ، حتى استطاعوا أن يدسوا الى افساد قلب السلطان عليه من باب السياسة اذ رموه بالدخول في مؤامرة مع الامير محمد صاحب بجاية . ولتهمة الائتمار على قلب نظام الدولة سهام لا تكاد تخطأ ، اذا لم تصب المقاتل أوهت العظم وقلقلت

الحشا وسلبت الاجفان نومتها الهادئة ؛ وبالاحرى حيث لم تكن قضاياها مما يوكل الى اجتهاد محكمة عادلة ، وانما ينفرد بسماع بلاغها ويستبد بتقدير عقوبتها أحد الخصمين الذي هو الرئيس الاعلى

ابن خلدون في السجن

انطلت تلك التهمة على فكر ابي عنان فقبض على ابن خلدون والامير محمد وزجهما في السجن . وكانت هذه النكبة أول ما لقيه ابن خلدون من بلاء السياسة وأيقن بها أن إقبال الدولة سرعان ما ينقلب إدباراً وان عزاً تبنيه للرجل صباحا قد يأتي عليه المساء ، فاذا هو الدرك الاسفل من الهوان

ثم ان السلطان أطلق سبيل الامير محمد ، وترك ابن خلدون يقاسي شدة الحبس ويتجرّع مرارة المحنة ، حتى التجأ في استعطافه وجلب مرضاته الى وسيلة الشعر والمديح وخاطبه بالقصيدة التي يقول في طالعها :

على أيّ حال ليالي أعاتبُ وأيّ صروف للزمان أغالبُ

وقد تنجح شفاعة الشعر لدى الحاكم المطلق وتأتي بالاثر الذي تذهب الحجج الساطعة دونه عبثا . وما كان من أبي عنان إلا أن هش للقصيدة ـ وكان وقتئذ بتلمسان ـ ووعد بالافراج عن ابن خلدون عند حلوله بحاضرة فاس . ولكنه لم يلبث بعد إيابه الى الحضرة الا خمس ليالي فطرقه الوجع ولقي أجله قبل ان يفي بوعده لابن خلدون

خروجه من السجن وولايته كتابة السر وغلبة المظالم

وبعد مهلك السلطان بادر الوزير الحسن بن عمر الى اطلاق سراح ابن خلدون من الاعتقال ، وخلع عليه من الاكرام بُرداً ضافيا وأعاد اليه ما كان يتقلده من اعمال الدولة

وعند ما استلم السلطان أبو سالم زمام الملك استعمل ابن خلدون على كتابة سره وألقى اليه الامر في انشاء مخاطباته ، فعدل بالانشاء عن طريقة التسجيع وأخذ به في طريق الترسل ـ ولم يكن في كتّاب الدولة لذلك العهد من يجيد صناعة الترسل ـ فكانت هذه المزية من أسباب تفوقه وإحرازه قصب السبق في حلبة البيان والتحرير

ولم تزل مكانته لدى ابى سالم راضية ، ولم تزحزحة سعاية ابن مرزوق ـ التي تناولت أكثر رجال الدولة ـ عما كان يتولاه من كتابة السر وانشاء المخاطبات ، بل لم تقف في سبيل تقليده خطةَ المظالم آخر عهد الدولة ، حتى ثار الوزير عمر بن عبد الله على السلطان ونبذ الناسُ بيعته من أعناقهم

ابن خلدون في دولة الوزير عمر بن عبد الله

وقع زمام الحكم في قبضة الوزير عمر بن عبد الله وكانت بينه وبين ابن خلدون قبل توليه أمر الدولة مودّة وصحبة ، فأقره على ما كان يتولاه من العمل وزاد في جرايته . وكان ابن خلدون يطمح بطغيان الشباب الى غاية اسمى مما يتولى من الاعمال ، وفي أمله ان عناية صديقه المقتدر لاتتريث في اسعافه ببغيته . ولما لاح له ان الوزير أخل بعهد الصحبة أخذه الاستياء من تقصيره الى ان انقطع عن دار السلطان وهجرها إدلالاً بسابق المودّة ، ولكن منصب الوزارة انسى عمر بن عبد الله أن من أساليب عتب الاصدقاء وتذكيرهم بحق أغضوا عنه هجرَهم من غير جَفاء ، وصرف القدم عن زيارتهم لا عن ملل ؛ ولم يشأ منصبُ الوزارة إلا أن يفهمه أن تقاعد ابن خلدون عن مقر السلطان زَلّةٌ جرّه اليها تماظه وقلة وفائه بما يستحق مقام الرياسة العليا من إكبار وخضوع ، فبدلا من أن يرعى الوزير مقام الصداقة ويجعله أرفع مكانا وأقوى سلطانا من مقام الرياسة ، أخذته نخوة السلطة ، وقابل هجر العتاب والادلال بهجر الجفاء والتقاطع

ولما رأى ابن خلدون منه التنكر والاصرار على الاعراض عنه استأذنه في العود الى إفريقية ، فلم يجز له ذلك ، وشدد في منعه ، حتى دخل عليه يوم عيد الفطر وخاطبه بقصيدة يقول في طالعها :

هنيئا لعيد لاعداه قبولُ وبشرى لعيد أنت فيه منيلُ

خلت هذه القصيدة عقدة من إبائه ، واذن له في السفر ، على شرط ان لا يتخذ سبيله الى تلمسان ، كراهة ان يتصل بصاحبها أبي حمو وبشتد به أزر دولته

رجوع ابن خلدون الى الاندلس

احتمل ابن خلدون هذا الشرط ، وولّى وجهه شطر الاندلس وافداً على السلطان ابن الاحمر بغرناطة . ولما بات بمقربة منها وافته من وزيرها لسان الدين بن الخطيب رسالة يهنئه فيها بالقدوم ، ويعبر بها عن شدة ابتهاجه للقياه ووضع في صدر الرسالة أبياتا ـ على سنّة من يجيد صناعتي الشعر والنثر ـ وهي :

حلاتَ حلول الغيث في البلد المحلِ على الطائر الميمون والرحب والسهلِ
يميناً بمن تعنو الوجوه لوجهه من الشيخ والطفل المعصب والكهل
لقد نشأت عندي للقياك غبطةٌ تنسّي اغتباطي بالشبيبة والأهل

ارسال سفيرا الى ملك الاسبان

نزل ابن خلدون من السلطان ابن الاحمر منزلة الاحتفاء والانعام ، وندبه للسفارة بينه وبين ملك الاسبان ، فعرف الملك قيمته وأعجب بكماله ومقدرته ، حتى دعاه الى الاقامة معه بدار ملكه (إشبيلية) ، ملتزماً له بان يرد عليه ما كان لسلفه من أملاك ، فرفض ابن خلدون هذه الدعوة ، ولم يكن ممن يشغفه المال حباً فيؤثره على المقام بين أمته التي يشرف بشرفها وينحط شأنه بانحطاط سمعتها